**المحاضرة الأولى: مدخل إلى الأنثروبولوجيا**

**مقدمة :**

**بالرغم من قدم هذا المصطلح أو هذه الكلمة في تاريخ المعرفة الإنسانية إلا أن استعمالها بدأ فعليا مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حيث ازداد الإهتمام بها وبالخصوص في الأوساط الثقافية الأنكلوساكسونية. ( بريطانيا وأمريكا).**

**وكان الإهتمام في هذه المرحلة منصبا على الأنثربوولجيا البيولوجية أو الفيزيائية، أي ان الجسد كان محور اهتمامات الدراسات الأنثروبولجيا ومركزها ، وبعد ذلك تم جمع الموضوعين كليهما في موضوع واحد سمي بالأنثربولوجيا الإجتماعية.**

**أولا: مفهوم الأنثروبولوجيا  :**

**الأنثروبولوجيا هو مُصطلح مُشتق من كلمتين يونانيتين هما: أنثروبوس وتعني الإنسان، ولوغوس، وتعني الدراسة، وبذلك يكون معنى الأنثروبولوجيا هو دراسة الإنسان، أو علم الإنسان، ويدرس هذا العلم البشر بماضيهم وحاضرهم ليفهم الكيانات الهائلة والمعقدة من الثقافات عبر التاريخ، وتُبنى الأنثروبولوجيا، وتتحرك على القواعد المعرفية التي تقوم عليها العلوم البيولوجية والاجتماعية.**

**في فرنسا نجد أن مرادف كلمة أنثروبولوجيا هو كلمة أثنولوجيا و معناها العرق أو الشعب معناها العلم وتعرف اصطلاحا على أنها دراسة نظرية وتركيبية للوثائق المكتوبة التي تركتها الأمم السابقة كالكتابة الهيروغليفية على ورق البردي.**

**المؤرخون وعلماء النفس والاقتصاد وعلماء الاجتماع وغيرها من المجالات يدرسون البشر بشكل منهجي بطريقة أو بأخرى. تتميز الأنثروبولوجيا بأنها تجمع بين أربعة مجالات فرعية تربط بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية. تشكّل هذه الحقول الفرعية الأربعة، لاسيما في المدرسة الأمريكية، علم الآثار والأنثروبولوجيا البيولوجية والأنثروبولوجيا اللغوية والأنثروبولوجيا الثقافية، نهجاً واسعاً لدراسة الإنسان في جميع أنحاء العالم، في ماضيه وحاضره.**

**تعرف الأنثروبولوجيا بأنها العلم الذي يدرس الإنسان من حيث هو كائن عضوي حي، يعيش في مجتمع تسوده نظم وأنساق اجتماعية في ظل ثقافة معينة، ويقوم بأعمال متعددة ويسلك سلوكا محددا ، وهو أيضا العلم الذي يدرس الحياة البدائية والحياة الحديثة المعاصرة ويحاول التنبؤ بمستقبل الإنسان معتمدا على تطوره عبر التاريخ الانساني الطويل ولذا يعتبر علم دراسة الإنسان ( الأنثروبولوجيا) علما متطورا يدرس الإنسان وسلوكه وأعماله.**

**وتعرف كذلك بعلم " الأناسة" العلم الذي يدرس الإنسان كمخلوق،أي دراسة علم الانسان طبيعيا واجتماعيا وحضاريا، أي أن الأنثروبولجيا لا تدرس الإنسان ككائن وحيد بذاته أو منعزلعن أبناء جنسه، إنما تدرسه بوصفه كائنا اجتماعيا بطبعه يحيا في مجتمع معين له ميزاته الخاصة في مكان وزمان معينين.**

**ثانيا: التطور التاريخي للانثربولوجيا:**

**تعود جذور الأنثروبولوجيا إلى الكتابات التاريخية والفلسفية اليونانية القديمة حول المجتمع البشري وتنظيماته. ويرى كثير من الأنثروبولوجيين أن هيرودوت، المؤرخ اليوناني الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد، هو أول مفكر يكتب على نطاق واسع عن المفاهيم التي أصبحت فيما بعد مركزية للأنثروبولوجيا. وقد أسست كتاباته حول البشر عموماً، خاصة في كتاب التاريخ، النمط الذي تبنته معظم الكتابات الأنثروبولوجية فيما بعد.  
 وكان المؤرخ العربي ابن خلدون، الذي عاش في القرن الرابع عشر الميلادي، أحد الكُتّاب الأوائل للأفكار ذات الصلة بالأنثروبولوجيا. درس ابن خلدون العوامل البيئية والاجتماعية والنفسية والاقتصادية التي أثرت في تطور الحضارات وقيامها وسقوطها.  
وخلال العصور الوسطى (من القرن الخامس إلى الخامس عشر بعد الميلاد) سيطر علماء الدين في أوروبا على التفكير الأوروبي في مسائل الأصول البشرية والتطور الثقافي. وبدءا من القرن الخامس عشر، قدّم المستكشفون الأوروبيون أوصافاً حية وملاحظات موجزة وغير منتظمة لثقافات آسيا وأفريقيا وما يعرف الآن بالأمريكتين.  
وشهد عصر التنوير الأوروبي في القرنين السابع عشر والثامن عشر ظهور الفكر الفلسفي العلمي والعقلاني. وكتب مفكرو التنوير، مثل ديفيد هيوم المولود في اسكتلندا، وجون لوك من إنجلترا، وجان جاك روسو من فرنسا، عدداً من الأعمال عن طبيعة الجنس البشري. لكن معظم كتاب عصر التنوير افتقروا إلى الخبرة المباشرة مع الثقافات غير الغربية.  
ومع صعود الإمبريالية (السيطرة السياسية والاقتصادية على الأراضي الأجنبية) في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، أصبح الأوروبيون على اتصال متزايد مع شعوب أخرى حول العالم، مما أدى إلى اهتمام جديد بدراسة الثقافة. وفي أواخر القرن الثامن عشر حصل الأوروبيون تدريجياً على طوفان من المعلومات الجديدة حول الشعوب الأجنبية لاسيما في المناطق التي استعمروها. واستجابة لهذه التطورات، وانطلاقاً من الاهتمام بالثقافات الجديدة والغريبة، شكل علماء الأنثروبولوجيا الهواة الأوائل مجتمعات في معظم دول أوروبا الغربية في أوائل القرن التاسع عشر. وكرّست المجتمعات الأنثروبولوجية نفسها لدراسة علمية لثقافات الأراضي المستعمرة وغير المكتشفة. ونشأ عن ذلك متاحف إثنولوجية وأثرية عدة، تحتوي على عديد من المعروضات التي تمثل تلك الثقافات.  
مع نهاية القرن التاسع عشر بدأ علماء الأنثروبولوجيا في شغل مناصب أكاديمية في الكليات والجامعات. وأصبحت الجمعيات الأنثروبولوجية سبباً لعلماء الأنثروبولوجيا للعمل في مناصب مهنية. وقد روجوا للمعرفة الأنثروبولوجية لقيمتها السياسية والتجارية والإنسانية.**

**ثالثا: طبيعة الأنثروبولوجيا:**

**إنّ الشعوب الناطقة باللغة الإنكليزية جميعها، تطلق على علم الأنثروبولوجيا : " علم الإنسان وأعماله " بينما يطلق المصطلح ذاته في البلدان الأوروبية غير الناطقة بالإنكليزية، على " دراسة الخصائص الجسمية للإنسان". ويصل هذا الاختلاف إلى طبيعة علم الأنثروبولوجيا .. فبينما يعني في أوروبا، الأنثروبولوجيا الفيزيقية، وينظر إلى علمي الآثار واللغويات كفرعين منفصلين، فإنّ الأمريكيين يستخدمون مصطلح (الإثنولوجيا أو الإثنوغرافيا) لوصف (الإثنوجرافيا الثقافية) والتي يطلق عليها البريطانيون (الأنثروبولوجيا الاجتماعية).  
ففي إنكلترا مثلاً، يطلق مصطلح الأنثروبولوجيا، على دراسة الشعوب وكياناتها الاجتماعية، مع ميل خاص للتأكيد على دراسة الشعوب البدائية. أمّا في أمريكا، فيرى العلماء أنّ الأنثروبولوجيا، هي علم دراسة الثقافات البشرية البدائية والمعاصرة، في حين أنّ علماء فرنسا يعنون بهذا المصطلح، دراسة الإنسان من الناحية الطبيعية، أي " العضوية ".**

**علم الأنثروبولوجيا يركّز اهتمامه على كائن واحد، هو الإنسان، ويحاول فهم أنواع الظاهرات المختلفة التي تؤثّر فيه .. في حين تركّز العلوم الأخرى اهتمامها على أنواع محدّدة من الظاهرات أنّى وجدت في الطبيعة .وكان علم الأنثروبولوجيا، وما زال، يحاول فهم كلّ ما يمكن فهمه أو معرفته عن طبيعة هذا المخلوق الغريب الذي يسير على قدمين، وكذلك فهم سلوكه الذي يفوق طبيعته الجسمية غرابة .  
ومع أنّ علماء الأنثروبولوجيا، استطاعوا استخدام بعض الأساليب التي طوّرتها العلوم الاجتماعية، فإنّهم قلّما اضطروا إلى انتظار تطوّر مثل هذه الأساليب .. والواقع أنّ إسهامهم في تطوّر العلوم الاجتماعية، لا يقلّ شأناً عن إسهام هذه العلوم في تطوّر الأنثروبولوجيا. ولذلك، ينقسم علم الأنثروبولوجيا إلى قسمين أساسيين كبيرين : يبحث الأول في الإنسان، ويعرف بالأنثروبولوجيا الطبيعية، في حين يبحث الثاني في أعمال الإنسان، ويعرف بالأنثروبولوجيا الثقافية / الحضارية واستناداً إلى هذه المنطلقات، فقد حدّدت الباحثة الأمريكية / مارغريت ميد/ طبيعة علم الأنثروبولوجيا وأبعاده، بقولها : " إنّنا نصنّف الخصائص الإنسانية للجنس البشري (البيولوجية والثقافية) كأنساق مترابطة ومتغيّرة، وذلك عن طريق نماذج ومقاييس ومناهج متطوّرة. كما نهتمّ أيضاً بوصف النظم الاجتماعية والتكنولوجية وتحليلها، إضافة إلى البحث في الإدراك العقلي للإنسان وابتكاراته ومعتقداته ووسائل اتصالاته. وبصفة عامة، نسعى – نحن الأنثروبولوجيين –لتفسير نتائج دراساتنا والربط فيما بينها في إطار نظريات التطوّر، أو ضمن مفهوم الوحدة النفسيّة المشتركة بين البشر .  
وتأسيساً على ما تقدّم، فإنّ الأنثروبولوجيا هي العلم الذي يدرس الإنسان، ويدرس أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بينه وبين الكائنات الحيّة الأخرى من جهة، وأوجه الشبه والاختلاف بين الإنسان وأخيه الإنسان من جهة أخرى.  
وفي الوقت ذاته، يدرس السلوك الإنساني ضمن الإطار الثقافي والاجتماعي بوجه عام. فلا تهتمّ الأنثروبولوجيا بالإنسان الفرد، كما تفعل الفيزيولوجيا أو علم النفس، وإنّما تهتمّ بالإنسان الذي يعيش في جماعات وأجناس، وتدرس الناس في أحداثهم وأفعالهم الحياتية .**

**رابعا : أهداف الأنثربولوجيا:**

**استناداً إلى مفهوم الانثروبولوجيا وطبيعتها، فإنّ دراستها تحقّق مجموعة من الأهداف، يمكن حصرها في الأمور التالية:**

**/1- وصف مظاهر الحياة البشرية والحضارية وصفاً دقيقاً، وذلك عن طريق معايشة الباحث المجموعة أو الجماعة المدروسة، وتسجيل كلّ ما يقوم به أفرادها من سلوكات في تعاملهم، في الحياة اليوميّة .  
/2- تصنيف مظاهر الحياة البشرية والحضارية بعد دراستها دراسة واقعية، وذلك للوصول إلى أنماط إنسانية عامة، في سياق الترتيب التطوّري الحضاري العام للإنسان (بدائي- زراعي- صناعي – معرفي – تكنولوجي)  
/3- تحديد أصول التغيّر الذي يحدث للإنسان، وأسباب هذا التغيّر وعملياته بدقّة علمية .. وذلك بالرجوع إلى التراث الإنساني وربطه بالحاضر من خلال المقارنة، وإيجاد عناصر التغيير المختلفة .  
/3- استنتاج المؤشّرات والتوقعّات لاتّجاه التغيير المحتمل، في الظواهر الإنسانية / الحضارية التي تتمّم دراستها، وبالتصوّر بالتالي لإمكانية التنبؤ بمستقبل الجماعة البشرية التي أجريت عليها الدراسة. ويبدو أنّ التباين العرقي بين بني البشر، هو الخاصة البيولوجية التي تستأثر باهتمام العالِم الحديث، أكثر من سائر الخواص البيولوجية الأخرى عند الإنسان. ويبذل المصنّفون العرقيون محاولات دائبة للتوصّل إلى تصنيف عرقي مثالي. فكان من نتائج انشغال علماء الأنثروبولوجيا الجسمية بمشكلة العرق، أن اكتسب مفهوم النوع (العرق) رسوخاً أعاق التفكير بالكائن البشري ذاته. فالأصناف العرقية البشرية ظلّت، وإلى عهد قريب، تعتبر كيانات ثابتة نسبياً، وقادرة على الصمود أمام تأثيرات البيئة أو قوى التغيّر الفطرية.  
ويلاحظ أنّ التطرّف في تمجيد فكرة العرق، أدّى إلى فرض عدد محدود من التصنيفات الصارمة على بني البشر الذين يمتازون بتنوّع لا حدّ له، وأدّى بالتالي إلى زج الأفراد في هذه التصنيفات، بصورة تطمس صفاتهم الأصلية الخاصة.**

**إنّ اهتمام الأنثروبولوجيا بدراسة المجتمعات الإنسانية كلّها، وعلى المستويات الحضارية كافة، يعتبر منطلقاً أساسياً في فلسفة علم الأنثروبولوجيا وأهدافها. ولكن على الرغم من التوسّع في مجال الدراسات الأنثروبولوجية، فما زالت الاهتمامات التقليدية للأنثروبولوجيا، ولا سيّما وصف الثقافات وأسلوب حياة المجتمعات، ودراسة اللغات واللهجات المحلية وآثار ما قبل التاريخ، تؤّكد ولا شك، تفرّد مجال الأنثروبولوجيا عمّا عداها من العلوم الأخرى، ولا سيّما علم الاجتماع.   
ومن هنا كانت أهميّة الدراسات الأنثروبولوجية في تحديد صفات الكائنات البشرية، وإيجاد القواسم المشتركة فيما بينها، بعيداً عن التعصّب والأحكام المسبقة التي لا تستند إلى أية أصول علمية.  
وإذا كان علم الأنثروبولوجيا، بدراساته المختلفة، قد استطاع أن ينجح في إثبات الكثير من الظواهر الخاصة بنشأة الإنسان وطبيعته، ومراحل تطوّره الثقافي / الحضاري، فإنّ أهمّ ما أثبته هو، أنّ الشعوب البشرية بأجناسها المتعدّدة، تتشابه إلى حدّ التطابق في طبيعتها الأساسية، ولا سيّما في النواحي العضوية والحيوية.**